حسن صناعة النثر

قال الشيرازي في مفتاح المفتاح في المعاني والبيان "وقد رأيت جماعة من مدّعي هذه الصناعة يعتقدون ان الكلام الفصيح هو الذي يعزّ فهمهُ ويبعد متناولهُ واذا رأوا كلاماً وحشيًّا غامض الالفاظ وصفوهُ بالفصاحة وهو بالضد من ذلك لان الفصاحة هي الظهور والبيان لا الغموض والخفاء . وسأبيّن لك ما تعتمد عليهِ في هذا الموضع فاقول ان الالفاظ تنقسم في الاستعمال الى جزلةٍ ورقيقةٍ ولكلٍّ منها موضع يحسن استعمالهُ فيهِ فالجزل منها يستعمل في وصف مواقف الحرب وفي قوارع التهديد والتخويف واشباه ذلك اما الرقيق منها فانهُ يُستعمل في ذكر الاشواق ووصف ايام البعاد وفي استجلاب المودّات وملاينات الاستعطاف واشال ذلك . ولست اعني بالجزل ان يكون وحشيًّا متوعّرًا عليهِ عُجْمَةٌ[1] البداوة بل اعني ان يكون متينًا على عذوبتهِ في الفم ولذاذتهِ في السمع . وكذلك لست اعني بالرقيق ان يكون ركيكًا مسفسفًا وانما هو اللطيف الرقيق الحاشية الناعم اللمس . ولهذا لا تجد في قوارع القرآن عند ذكر الصراط والحساب والعذاب شيئًا من ذلك وحشيَّ الالفاظ ولا متوعّرًا ولا في ذكر الرحمة والمغفرة وملاطفات خطاب الاستعطاف شيئًا من ضعيف الالفاظ ولا مسفسفًا . مثال الجزل قولهُ تعالى ونُفخ في الصور فصَعِق من في السموات[2] الى قولهِ فنعم اجر العاملين اذ ليس فيها لفظة الاّ وهي سهلة مستعذبة على ما بها من الجزالة . ومثال الرقيق قولهُ تعالى في مخاطبة النبي صلعم والضحى الى آخر السورة[3] وهكذا ترى سبل القرآن العظيم في كلا هاتين الحالتين من الجزالة والرقّة . انتهى"

---

(١) قال الفرّاء يقال فيهِ عجمهية وفي الكبر والعظمة ويقال الجهل والحمق . (صحاح)

(٢) تمامهُ . ومن في الارض الاّ من شاء الله ثم نفخ فيهِ أخرى فاذا هم قيامٌ ينظرون . واشرقت الارض بنور ربها ووضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء وقضي بينهم بالحق وهم لا يظلمون . ووفّيت كل نفس ما عملت وهو أعلم بما يفعلون . وسيق الذين كفروا الى جهنم زمرًا حتى اذا جاءوها فتحت ابوابها وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسلٌ منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين . قيل ادخلوا ابواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين . وسيقَ الذين اتقوا ربهم الى الجنة زمرًا حتى اذا جاءوها وفتحت ابوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين . وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعدهُ واورثنا الارض نتبوأ من الجنة حيثُ نشاء فنعم اجر العاملين

(٣) وهي . والضحى والليل اذا سجى ما ودّعك ربك وما قلى وللآخرةُ خيرٌ لك من الاولى ولسوف يعطيك ربكَ فترضى الم يجدك يتيمًا فآوى ووجدك ضالاً فهدى ووجدك عائلاً فاغنى فاما اليتيم فلا تقهر واما السائل فلا تنهر واما بنعمة ربك فحدث